الفصـل الثالث

مصدر الدين وبواعث التدين عند جمهور المسلمين

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول:
القرآن الكريم وحديثه عن مصدر الدين

تمهيد:-

ذكرنا أن هناك اتجاهين رئيسيين فى مصدر الدين والباعث عليه. وقد عرضنا الاتجاه القائل بأن الدين مصدره الإنسان وهناك اتجاه آخر يذهب إلى أن الدين مصدره الله وهذا الاتجاه يقرر أن العقيدة الدينية لم يسر إليها الإنسان بل سارت هى إليه وأنه لم يصعد إليها بل نزلت عليه وأن الناس لم يعرفوا ربهم بحجة العقل بل بنور الوحى[١]

وهذا قول جمهور أهل السنة والجماعة ونفرٌ، نفرٌ من الباحثين الغربيين انتهوا بعد دراساتهم إلى أن عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر وأن الوثنيات إن هى إلا عرض طارئ ومرض متطفل بجانب هذه العقيدة العالمية ومن أبرز الباحثين الغربيين فى هذا الاتجاه " شلنج " الذى ذهب فى كتابه " فلسفة الميتولوجيا " إلى أن فكرة عن التوحيد غامضة وغير واضحة كانت تسود الإنسانية الأولى "[٢]

وكان منهم " لانج " Anderelang " الذى كان ظهور مذهبه مؤذنا بعهد جديد فى تاريخ الأديان والأجناس فقد بشر بقوة بأن أقدم ديانة فى الوجود هى ديانة إله السماء وعنها تشعبت الأديان . وقد أثارت آراء لانج دهشة كبرى فى الأوساط العلمية السائدة فى ذلك الحين. وهاجمها كثير من علماء أوربا فى ذلك الوقت[٣] كما يقرر الدكتور النشار.

---

(١) الدين ص ١٦٤
(٢) نشأة الدين ص ١٧٩
(٣) نفسه ص ١٨١، ١٨٤، ١٩١

obeikandi.com

ومنهم " ويليم شميد " الذى درس أحوال القبائل ومعتقداتها فرأى أن عقائد هذه القبائل الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشريحها إلى عقيدة الإله الواحد "(١)

ولكن يجب أن نحتاط فى عرض آراء الغربيين الذين يذهبون إلى القول أن الإنسان بدأ موحداً. ثم انتكس إلى التعدد والوثنية وهذا التحفظ مرده إلى أمرين:

الأول: أن التوحيد الذى يقولون به لا ينسبونه إلى السماء عن طريق الأنبياء. وإنما يدرسون القبائل وعاداتها وتقاليدها فهو توحيد مختلط بالوثنية.

الثانى: أنهم يدرسون هذا الدين. فى دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة. وهذه الدراسة لا يملكون وسائلها.

يقول العلامة الدكتور دراز وهو بصدد التعليق على القائلين بالتطور والقائلين بالفطرة يقول رحمة الله عليه " غير أنه مهما تتفاوت النتائج فى نظر المذهبين " التطورى والفطرى " فإنهما متفقان على موضوع البحث وهو تحديد صورة العقيدة " البدائية " الحقيقية وعلى منهاجه وهو دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة ونحن نرى أن وضع المسألة على هذا الوجه ومحاولة حلها من هذا الطريق ينطوى على خطأ مزدوج فى الغاية وخطأ فى الوسيلة "(٢)

وبعد أن يدلل على خطأ الفريقين يقرر أن الغرض الذى بنيت عليه البحوث الحديثة كلها أسست على جرف هار لا تطمئن عليه الأقدام(٣). ومعه الحق فيما ذهب إليه.

ولذلك فنحن إنما نذكر هذه الأقوال للغربيين على سبيل الاستئناس فقط ويبقى عندنا المصدر الحق الذى نستقى منه الحديث عن مصدر الدين والباعث عليه وحقيقة المعبود الذى توجه إليه الإنسان قديماً. على امتداد التاريخ وكيف ظهر الانحراف. كل هذه الأمور تحدث عنها الإسلام.

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب ج ٦ ص ٣٦ وما بعدها الدكتور جواد على.

(٢) الدين ص ١٠٨

(٣) نفسه ص ١٠٩.

obeikandi.com

حديث القرآن الكريم والسنة عن مصدر الدين

إن تاريخ العقيدة الدينية قسم منه لم يقع على الأرض بل حدث فى السماء ولذا فإن الرأى الصواب هو أن نتلمس حقيقة الدين ومصدره من الخالق سبحانه وتعالى الذى فصَّل لنا حالة الإنسان الأول وتدينه . يقول سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [١]

ويقول سبحانه ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٢]

هذه الآيات تقرر الآتى :-

أولاً أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلق آدم قضى أن يكون خليفة فى الأرض يخلف الله فيها بمنهج الحق والتوحيد.

ثانياً : أن الله عز وجل خلق آدم وهو فى قمة النضج العقلى والمعرفى بدليل أن الله علمه الأسماء أى اسم كل شيء كما يقول ابن عباس [٣] وهذه الأسماء لم يعرفها الملائكة وعرفها آدم وأنبأ الملائكة بها...

ثالثاً : أنه منذ خلق آدم حواء وهناك أمر ونهى تمثل فى إباحة الجنة له بما فيها من الطيبات باستثناء شجرة مخصوصة . لا يعلمها إلا الله وحذرهما من الشيطان الذى

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠

(٢) سورة البقرة الآية ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨.

(٣) مختصر تفسير البغوى ص ١٩

أظهر العداوة المبكرة لآدم عليه السلام حين امتنع عن السجود له مع بقية الملائكة امتثالاً لأمر الله.

رابعاً: أن الله أهبط آدم من الجنة بعد أن نسى ما عهد به الله إليه، وعده الله بأن يُنزل عليه وعلى ذريته هداه كى يعرف الإنسان بربه ومنهجه وتشريعه ووعد المهتدين بالسعادة فى الدنيا والفوز فى الآخرة أما المكذبين المعرضين فأوعدهم النار خالدين فيها.

خامساً: تدلنا هذه الآيات وغيرها أن مصدر الدين هو الله وأن الإنسان الأول نزل بالوحى والهداية والتوحيد وأن الباعث له على التدين هو الفطرة التى أودعها الله فيه، وجعله مستعداً لقبول الهدى والخير[1]

(١) انظر العقيدة فى الله ص ٢٤٥، ٢٤٦ وانظر الإسلام والأديان ص ٢٤وانظر دعوة التوحيد ٧٩ـ ٩٢وانظر ظلال القرآن ج ١ ص ٥١ـ ٥٥

obeikandl.com

المبحث الثانى

البواعث على التدين عند جمهور المسلمين

آدم وذريته الأولون كانوا على التوحيد

سبق وأوضحنا أن الله أنزل آدم. ومعه الهدى الذى من اتبعه لا يضل ولا يشقى ومن يُعرض عنه فإن له معيشة ضنكاً، وحديثنا هنا عن ذرية آدم المتقدمين. هل عبدوا الإله الواحد أو بدأوا وثنيين؟

جمهور أهل السنة على أن آدم وذريته كانوا على التوحيد ليس فقط فى حياة آدم وإنما استمروا على التوحيد فترة طويلة تقدر بعشرة قرون. واستدلوا على هذا الرأى بعدة حقائق نعرضها فى المسائل التالية:ـ

obeikandl.com

المسألة الأولى: فطرة الله التي خلق الناس عليها والميثاق الذى أخذه عليهم.

يقول تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١]

وقد اتفق جمهور المفسرين على أن المراد بالفطرة الإسلام والتوحيد الخالص له سبحانه يقول الطبرى ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ صبغة الله التى خلق الناس عليها قال أهل التأويل عن ابن وهب عن ابن زيد فى قوله ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ قال الإسلام منذ خلقهم الله من آدم جميعاً يقرون بذلك وقرأ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾[٢]

ويقول ابن كثير عند تفسيره لآية ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ إنه تعالى فطر خلقه على توحيده ومعرفته وأن لا إله غيره[٣]

ويؤيد ما ذهب إليه المفسرون ما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة هل ترى فيها من جدعاء ؟"[٤]

يقول ابن حجر " وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام. قال ابن عبد البر وهو المعروف عند عامة السلف، وينقل عن القرطبى فى المفهم ما يؤيد أن المراد بالفطرة الإسلام والدين الحق[٥].

ويؤيده ما رواه مسلم بسنده عن عياض بن حمار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم فى خطبته" ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢

(٣) تفسير الطبرى المجلد العاشر ص ٢٦/٢٧دار المعرفة وانظر الرازى ج ٢٥/ ٢٦ ص ١٢٠

(٤) فتح البارى ج ٣ ص ٣٩٣ / ٣٩٤

(٥) نفسه ج ٣ ص ٣٩٣/ ٣٩٤

علمنى يومى هذا. كل مال نَحَلْتُه عبداً حلال. وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً "[١] وهذا الحديث أصل عظيم فى الدلالة على أن الناس كلهم منذ آدم عليه السلام كانوا على الحنيفية أى الإسلام وقيل كانوا مستقيمين منيبين لقبول الهداية أما قوله (وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم) أى استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم فى الباطل كذا فسره الهروى فى رواية فاختالتهم أى يحبسونهم عن دينهم ويصدونهم عنه [٢]

ومن الآيات التى يستدل بها على أن الناس كانوا على التوحيد وأنهم فطروا عليه قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [٣]

يقول ابن كثير " إن المراد بهذا الإشهاد هو إنما فطرهم على التوحيد كما فى حديث أبى هريرة ما من مولود إلا ويولد على الفطرة . ولهذا قال من بنى آدم ولم يقل من آدم، وقال من ظهورهم ولم يقل من ظهره. والمراد أن الله جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، ودل على أنهم فطروا على التوحيد ولهذا قال أن تقولوا أى لئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا " أى التوحيد غافلين [٤]

ويذكر " القاسمى " أن الله فى هذه الآية أخبر أنه فطر الخلق كلهم على معرفته بفطرة التوحيد حتى من خلق مجنوناً مطبقاً لا يفهم شيئاً ما يحلف إلا به ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس فطرة بالغة[٥]

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦/ ١٧ ص ١٩٧ باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار

(٢) نفسه

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٢-١٧٣

(٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٦٣/ ٢٦٤ وانظر مختصر تفسير البغوى ج ١ ص ٣٢٢/ ٣٢٣

(٥) محاسن التأويل للقاسمى ج ٥ ص ٢٩٧ / ٢٩٨ دار الفكر

وعلى نفس النهج سار صاحب المنار حيث ذكر عشرة وجوه للدلالة على أن هذا الإشهاد بالفطرة والرسل لا وجه بعده فى إقامة الحجة على من أشرك (١)

إن دلالة الفطرة على وجود الله ووحدانيته تحل لنا كثيراً من الأمور التى نبحث لها عن حل سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة.

أولاً: على مستوى الفرد

إن أى إنسان ملحد بالتأمل فى حياته نجد أنه يتمرد على الاعتقاد فى وحدانية الله طالما أنه غارق فى نعيمه سبحانه يقول سبحانه ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ أى ليتجاوز حده ويستكبر على ربه أن رأى نفسه غنياً قال الكلبى: يرتفع عن منزلة إلى منزلة فى اللباس والطعام وغيرهما (٢)

يظل هكذا معرضاً حتى إذا أدركته نعمة الله وبلائه ليصحو من غفلته بنقمة قارعة تتبدد بها وسائل الاستغناء عن الله كأن يتعرض لحريق عاصف أو غرق يائس فإن الحوائل التى كانت تحول بينه وبين فطرته تسقط تلقائياً، ويجد نفسه وجهاً لوجه أمام حقيقة الاعتراف بوجود الله ووحدانيته(٣) لأن الدافع الفطرى أو الإحساس بأن الله هو المنقذ عميق وقوى ومسيطر على النفس البشرية، ويظهر هذا الشعور حين يمس الإنسان أدنى بلاء (٤)

ثانياً: على مستوى الجماعة والشعوب

فإن المتأمل فى أحوالهما فى جميع مستوياتها وأطوارها الاجتماعية يجد أنها تعتنق عقيدة فى الله مما يدل على أن ذلك أمر مفطور عليه البشر وإن الانحراف الذى تتعرض له الشعوب إنما هو نوع من تشويه الفطرة يقودها إلى الشرك بالله لا إلى إنكار وجوده أو هو من الكبت يقودها إليه طائفة من الحكام يريدون لها أن تهبط من عبودية الله إلى عبودية البشر (٥)

---

(١) انظر تفسير المنار ج ٩ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ دار المعرفة للطباعة والنشر.
(٢) انظر مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ١٠٢٥ والآية من سورة العلق الآية ٦ ، ٧
(٣) انظر مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ١٠٢٥
(٤) انظر المنهاج القرآنى ص ٨٨/ ٨٩ لأستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلى وانظر نهاية الأقدام للشهر ستانى ص ١٢٤ ، ١٢٥.
(٥) انظر مداخل إلى العقيدة ص ١٣٨ لأستاذنا الدكتور يحيى هاشم

ولكن تظل مع ذلك كله الفطرة كقوة غلابة لا تزيدها المقاومة إلا عنفاً واشتعالاً إن قوة الفطرة لا حد لها فهى ما إن مسها إزاء الكون الهائل والدقيق المتمثل فى تفصيلات الأجرام وتنظيماتها ودورة أفلاكها من يوقظها استيقظت كالعملاق وقد يكون ذلك الشيء روعة يحسها الإنسان. وقد يكون لحظة من يقظة الوجدان أو أزمة من الأزمات مثل الموت الذى يروع الحس البشرى ويلجئه للبحث عن واهب الحياة. ثم هناك روعة حدوث الأحداث: الليل والنهار الزمان والمكان والموت والحياة والصحة والمرض والغنى والفقر واللذة والألم والسعادة والشقاء كلها توقيعات يوقعها خالق الكون على الحس البشرى فتوقظ فطرته إلى الله.

والإسلام يقيم نظامه كله على هاتين الحقيقتين المتقابلتين:

حقيقة وجود الخالق، وحقيقة توجه الفطرة إليه فهو يمنح الإنسان عقيدة فى الله تلبى فطرته المتوجهة إلى الله، وتصحح الفطرة وتقومها من خلالها إن ضلت عن حقيقة الله. عقيدة تلبى حاجة الإنسان الفطرية إلى الله، وحاجاتها الفطرية إلى عبادته وحاجاتها الفطرية إلى التعرف على مركزها من الحياة والكون وعلى حقيقة الصلة بينها وبين الله [١]

---

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ٩٥ وانظر المعالجة القيمة للأستاذ محمد قطب ـ التطور والثبات ص ١٨٣، ١٨٤ وانظر الدين والفطرة فى كتاب دراسات فى النفس الإنسانية

المسألة الثانية: استمرارية التوحيد من آدم إلى نوح عليه السلام

من الآيات ذات المغزى العميق والدلالات الواضحة على أن الأصل هو توحيد الله سبحانه وتعالى، وأن الطارئ هو الشرك والوثنية عكس ما يقوله التطوريون قول الله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١] هذه الآية أصل كبير يستدل به جمهور العلماء على أن الناس كانوا على التوحيد. أمة واحدة على الحق والهدى من لدن آدم عليه السلام إلى أول رسول وهو نوح عليه السلام.

واستدل الجمهور على ما ذهبوا إليه بأدلة عقلية ونقلية ولغوية ولكن ذهب البعض إلى خلاف رأى الجمهور وقالوا بأن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر واستدلوا ببعض ما أُثِر عن الصحابة والتابعين من آثار فممن ذهبوا إلى أنهم كانوا أمة واحدة على الكفر الحسن وعطاء وأحد قولى ابن عباس عنهم أنهم قالوا: كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح أمة وأحدة على ملة الكفر أمثال البهائم فبعث الله نوحاً وغيره من النبيين[٢]

وممن ذهب إلى هذا الرأى فى العصر الحديث الإمام محمد عبده وقد نقل رأيه الأستاذ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[٣] يقول رحمه الله " حمل جمهور العلماء من المفسرين لفظ الأمة فى الآية على الملة ثم اختلفوا فيم كانت الملة فقال جمهورهم: أنها ملة الهدى والدين القويم فيكون معنى الآية فى رأيهم كان الناس أمة واحدة أى ملة واحدة قيمة الدين صحيحة العقيدة جارية فى أعمالهم على

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٣

(٢) تفسير البغوى ج ١ ص ٧٥

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٣

openkandil.com

أحكام الشرائع ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ (١)

يقول رحمه الله " ولما وجدوا أى (الجمهور) أن المعنى لا يكون قوياً لأنه لا معنى لإرسال الرسل إلى الأمم الصالحة المهتدية ليحكموا بينهم فيا اختلفوا فيه إذ لا يتأتى الاختلاف الذى يحتاج فى رفعه إلى رسالة الرسل مع استقامة العمل والوقوف عند حدود الشرائع. قالوا لابد من تقدير فى العبارة فيكون الكلام كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنت ترى أن هذا بمنزلة أن تقول " كان زيد عالماً فبعثت إليه من يعلمه ما كان نسيه من معلومات أو كان عاملاً فترك العمل فأرسلت إليه من يعظه فى العودة إلى ما ترك من عمله وتقول إن كلامى على تقدير كان عالماً فنسى أو كان عاملاً فترك العمل فبعثت إليه أو أرسلت إليه، وهو مما لا يقبله ذوق عربى " والملاحظ أن الإمام محمد عبده يستخدم كل الوجوه الممكنة لصرف قول الجمهور أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق. ويعرض رأى من قال بأنهم كانوا أمة واحدة على الكفر والضلال يقول : والآية لم تحدد زمن كان الناس أمة واحدة وغاية ما فى الأمر أن يكون النبيون المبعوثون مخصوصين بغير آدم أو نوح. إذا حملت الأمة الواحدة على أمة الضلال والفساد ولذلك ذهبت طائفة أخرى وفى مقدمتهم ابن عباس وعطاء والحسن إلى أن الأمة الواحدة أمة الضلال التى لا تهتدى بحق ولا تقف بأعمالها عند حد الشريعة واحتجوا على قولهم بهذا التعقيب فى الآية فإنه جعل بعثة الرسل تابعة لوحدة الأمة، ولا تكون تلك الوحدة قاضية بالحاجة إلى إرسالهم ليحكموا بينهم فى الاختلاف الذى يقع فيهم بسبب الفساد فى العقائد والذهاب مع الأهواء الضالة فى الأعمال واعتداء بعضهم على بعض لذلك. وانتهاكهم حرمة ما أمر الله برعاية حرمته فيجب أن تكون وحدة الأمة وحدة فى الباطل حتى يرد عليه الحق فيزهقه وأما لو كانت الأمة واحدة فى الهدى واتباع الحق فلا معنى لجعل بعثة الرسل مترتبة عليها كما هو ظاهر، ودفعوا ما يقال من أن آدم كان نبياً وكان أولاده ممن بقى على شريعته فكيف يقال إن الناس كانوا أمة واحدة على الباطل؟ دفعوه بأن الحكم على الغالب فقد كان الناس لعهد نوح كفاراً إلا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٣

القليل منهم ومن المعروف أنه يقال دار كفر لمن كان أغلب سكانها كفاراً وإن كان فيها مسلمون "[١] ويستند رحمه الله على بعض أقوال المفسرين التى تذهب إلى أن كان فى الآية للثبوت لا للمضى. وقد ذهب إلى هذا " ابن العادل " نقلاً عن " القرطبى" يقول : ونحن ذاكرون لك إن شاء الله ما يجلى المعنى فى الآية مقتفين أثر ابن العادل والقرطبى فيما قالاه فى معنى (كان) وأنها للثبوت لا للمضى "[٢] ويتتبع وصف الأمة فى القرآن الكريم ليخلص إلى أن الأمة فى الآية كانت على الضلال لا على الحق ثم يتحدث عن الحكمة والغاية من إرسال الرسل وأن الناس لا يستغنون عن هدى الله عن طريق الأنبياء يقول " فلما كان الناس أمة واحدة ولا يمكن أن يكونوا بمقتضى فطرهم إلا كذلك وهم إنما يعملون بمقتضى آرائهم وينحون فى أعمالهم نحو المنافع التى يرونها لازمة لقوام معيشتهم ولم يمنحوا من قوة الإلهام ما يعرف كلاً منهم وجه المصلحة فى حق غيره لتوفير المنفعة بذلك لنفسه لما كانوا كذلك كان لابد من الاختلاف، وكان من رحمة الله بهم أن يُرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين "[٣] وهكذا رأينا الإمام محمد عبده ينتصر للرأى القائل بأن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر والضلال. ويعمل جاهداً لترجيحه فيتابع رأى من قال بأن (كان) فى الآية للثبوت كما فى قوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وليست للمضى. ثم نراه يبين أن التقدير الذى ذهب إليه الجمهور فى الآية " فاختلفوا " غير مقبول من ناحية الذوق اللغوى فإذا كنت لا تراه لائقاً بكلامك فكيف تجده لائقاً بكلام الله أبلغ الكلام وأولى قول بملك العقول والأفهام "[٤] وسوف نعرض رأى الجمهور فى تفسير هذه الآية ونرجح ما نراه.

وذهب آخرون مثل قتادة وعكرمة وأحد قولى ابن عباس إلى أنه : كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح وكان بينهما عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى ثم اختلفوا فى زمن نوح فبعث الله نوحاً فكان أول نبى بُعث ثم بعث بعده النبيين[٥]

---

(١) انظر تفسير المنار ج ١ ص ٢٢١، ٢٢٢
(٢) نفسه ج ١ ص ٢٢٣- ٢٢٤
(٣) نفسه
(٤) تفسير المنار ج ١ ص ٢٢٤
(٥) نفسه وانظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٠ وانظر الطبرى ج ٤ ص ٢٧٥

يعرض هذا الخلاف إمام المفسرين الطبرى بقوله (كان الناس أمة واحدة) كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين فكان أول نبى بعث نوح عليه السلام فكان تأويل الآية على معنى قول هؤلاء : كان الناس أمة مجتمعة على ملة واحدة ودين واحد فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأصل الأمة الجماعة تجتمع على دين واحد ثم يكتفى بالخبر عن الأمة من الخبر عن الدين لدلالتها عليه كما قال جل ثناؤه ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (١) يراد به : أهل دين واحد وملة واحدة فوجه ابن عباس فى تأويله قوله **(كان الناس أمة واحدة)** إلى أن الناس كانوا أهل دين واحد حتى اختلفوا. هذا الدين الذى كانوا عليه دين الحق كما قال أبىّ بن كعب (٢) لكن فى أى الأوقات كان الناس على دين واحد ثم اختلفوا؟ يجيب الطبرى: يجوز أن ذلك الوقت الذى كانوا فيه أمة واحدة من عهد آدم إلى عهد نوح عليهما السلام كما روى عكرمة عن ابن عباس وكما قاله قتادة، وجائز أن يكون ذلك حين عرض على آدم خلقه، ويجوز أن يكون ذلك فى وقت غير ذلك(٣).

ثم يقرر أنه لا دلالة من كتاب الله ولا خبر يثبت به الحجة على أى هذه الأوقات كان ذلك. ويرى أن الأولى القول بما قال عز وجل من أن الناس كانوا أمة واحدة فبعث الله فيهم لما اختلفوا الأنبياء والرسل ولا يضرنا الجهل بوقت ذلك (٤) ثم ينفذ إلى ما يراه حقاً وأولى بالقبول فيقول " غير أنه أى ذلك كان فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخبر الله عنهم كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به ذلك أن الله قال فى سورة يونس ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(٥) فتوعد جل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة ولو

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٨
(٢) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩
(٣) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩
(٤) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩
(٥) سورة يونس الآية ١٩

كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان ولو كان ذلك لكان الوعد أولى بحكمته جل ثناؤه فى ذلك الحال من الوعيد لأنها إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحال أن يتوعد فى حال الإنابة ويترك ذلك فى حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك "(١) وهذا ملخص جيد فى فهم الآية من إمام المفسرين " الطبرى " إذ المناسب أن يتوعدهم الله على الاختلاف فدل ذلك على أنهم انحرفوا عن التوحيد إلى الشرك الأمر الذى استدعى إرسال الأنبياء والرسل. وفى جميع ما نقلناه عن الطبرى نراه ينزع إلى ترجيح أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق لكن الذى توقف فيه الوقت الذى كانوا فيه أمة واحدة. فلم يحدده ولكن هذا الوقت أورده ابن كثير فيما روى عن ابن عباس كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، وهذا الأثر عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى كما يذهب ابن كثير (٢) فى تفسيره وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال " وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام (٣) والمقصود بالإسلام هنا إسلام الوجه لله وتوحيده وطاعته.

أما الرازى فى تفسيره فيستدل باللغة والعقل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق. ويدلل على ذلك بوجوه منها:

أولاً: ما ذكره القفال من الدلالة بقول الله تعالى (فبعث الله النبيين) فهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا حين الاختلاف ويتأكد هذا بقوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾ ويتأكد بما نقل عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ إذا عرفت هذا فنقول الفاء فى قوله (**فبعث الله النبيين**) تقتضى أن يكون بعثهم بعد الاختلاف ولو كانوا قبل ذلك أمة واحدة فى الكفر لكانت بعثة الرسل قبل هذا الاختلاف أوْلى لأنهم لما بُعثوا عندما كان بعضهم محقاً وبعضهم مبطلاً. فلأن يُبعثوا حينما كان كلهم مبطلين

(١) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩ـ ٢٨٠

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٠

(٣) انظر العقيدة فى الله ص ٢٤٦

أولى، ويعلق الرازى على ما ذكره القفال بقوله " والوجه الذى ذكره القفال حسن فى هذا الموضوع".

ثانيها: أنه تعالى حكم بأنه كان الناس أمة واحدة فاختلفوا بحسب دلالة الدليل عليه وبحسب قراءة ابن مسعود ثم قال سبحانه **(وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه)** والظاهر أن المراد من هذا الاختلاف هو الاختلاف الحاصل بعد ذلك الاتفاق المشار إليه بقوله(كان الناس أمة واحدة) ثم حكم على هذا الاختلاف بأنه إنما حصل بسبب البغى وهذا الوصف لا يليق إلا بالمذاهب الباطلة، وهذا يدل على أن الاتفاق الذى كان حاصلاً قبل هذا الاختلاف إنما كان فى الحق لا فى الباطل.

ثالثها: أن آدم عليه السلام لما بعثه الله رسولاً إلى أولاده فالكل كانوا مسلمين مطيعين لله تعالى ولم يحدث فيما بينهم اختلاف فى الدين إلى أن قتل قابيل هابيل بسبب الحسد والبغى وهذا المعنى ثابت بالنقل والتواتر والآية منطبقة عليه كما يقول الرازى[١].

بهذه الوجوه اللغوية والنقلية والعقلية رجح " الرازى " أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق لا على الضلال. تبقى مسألة الوقت والمدة التى ظلوا فيها على تلك الحالة. لم يتعرض " الرازى " لها. وإن كان عندنا النص الثابت عن ابن عباس كما رواه البخارى بأن المدة كانت عشرة قرون على خلاف فى مدة القرن . " ثمانون سنة وقيل ثلاثون سنة، والقرن فى الناس أهل زمان واحد أو هو الجيل من الناس يقول تعالى **﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾**[٢] ويقول تعالى **﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾**[٣].

وهذا القرن معناه الجيل من الناس أو أهل الزمن الواحد[٤].

وقد ثبت أن أول نبى بعد آدم عليه السلام هو نوح[٥] فتكون تلك الفترة على التوحيد الذى جاء به آدم وترك أبناءه عليه. ونحن إذ نرجح أن الناس كانوا أمة واحدة

---

(١) معركة التقاليد ص ٧٨. ٧٩ دار الشروق
(٢) سورة الإسراء الآية ١٧
(٣) سورة المؤمنون الآية ٣١
(٤) مختار الصحاح ص ٤٧٥ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤م وانظر العقيدة فى الله ص ٢٤٧
(٥) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٣٠. ٣٢

على التوحيد لنقطع الطريق على من ذهبوا إلى أن الإنسان بدأ بالوثنية وانتهى بالتوحيد. ونقول لهم هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إإتونا بعلم إن كنتم صادقين. إن التوجه إلى المظاهر المادية من أوثان ومظاهر طبيعية كان بعد أن بَعُدَتْ بالإنسان المسافة عن مصدر الدين التوحيدى فانحدر من الألوهية إلى المادية[١]. لأن العقيدة فى الله عنصر ثابت فى النفس البشرية. عنصر قائم فى صميم الفطرة يهدى البشرية إلى خالقها وإنما الانحراف الذى يحدث هو انحراف فى طريق تصور الله، ومهمة الأنبياء والرسل دائماً هى هداية البشرية إلى الطريق المستقيم الذى ينبثق منه المشاعر الصحيحة، والسلوك الصالح والتنظيم السليم وليس صحيحاً أنه مرت على البشرية سلسلة منتظمة من العقائد الضالة أدت فى النهاية إلى التوحيد إنما الثابت من التاريخ أن البشرية مرت فى دورات متعاقبة من الهدى والضلال من التوحيد والتعدد من التجريد والتجسيم[٢].

على أننا يمكن أن نقلب نظرية التطور فى الدين بالمفهوم الغربى رأساً على عقب حين نقرر ومعنا النقل والعقل فى ذلك. أن الذى تطور لم يكن العقيدة فى الله وإنما كان انحراف العقيدة فى الله. حين عبدت البشرية مظاهر الطبيعة وعبدت الطوطم كانت فى ذلك تنحرف عن العقيدة الصحيحة فى الله، وتتصوره تصورات شتى منحرفة. ومن الثابت فى التاريخ وأغفله علم الاجتماع الغربى أن البشرية فيما بين انحرافاتها المتكررة قد مرت بفترات فاءت فيها إلى العبادة الصحيحة عن طريق الرسالات السماوية قبل أن تعود مرة أخرى إلى الانحراف بعد تقادم الزمن وتباعد العهد عن الوحى [٣]

---

(١) انظر الحكمة العربية فى أصالتها الفطرية ص ٣٤٨ لأستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلى

(٢) معركة التقاليد ص ٧٨. ٧٩ دار الشروق

(٣) التطور والثبات فى حياة البشرية ص ١٨٦ محمد قطب ـ دار الشروق

المسألة الثالثة: إرسال الرسل

من الآيات ذات المغزى العميق فى الدلالة على أن الناس كان عندهم توحيد، وأن أى جماعة بشرية فى أى منطقة من العالم. إذا وجد عندهم توحيد أو بقايا من التوحيد فليس ذلك مرده إلى التطور عن التعدد والوثنية - وليس ذلك مرده إلى التقدم الفكرى والعقلى - وإنما مرده بالإضافة إلى ما ذكر من الفطرة ، والميثاق الذى أخذه الله على بنى آدم ، وكونهم كانوا أمة على التوحيد. إلى أن حدث فيهم الشرك. إرسال الأنبياء والرسل.

يقول تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[1]

يقول الطبرى " إن أرسلناك يا محمد بالحق وهو الإيمان بالله وشرائع الدين التى افترضها الله على عباده بشيراً يقول مبشراً بالجنة من صدقك وقبل منك ما جئت به من عند الله من النصيحة (**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**) أى وما من أمة من الأمم الدائنة بملة إلا خلا فيها من قبلك نذير ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله.

وعن قتاده (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) كل أمة كان لها رسول "[2] لتذكير بنى آدم من جديد بعقيدة التوحيد الذى فُطروا عليه.

وبصيغة الحصر والقصر يبين " ابن كثير " أنه ما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[3]

وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾[4] ومما تجدر الإشارة إليه أن نوحاً عيه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض.

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤ وانظر الإنسان فى ظل الأديان ص ٢٤٧

(٢) تفسير الطبرى المجلد العاشر ص ٨٦ وانظر الإسلام والأديان ص ٢٩

(٣) سورة الرعد الآية ٧

(٤) سورة النحل الآية ٣٦

روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال " يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول : لست هناكم ويذكر ذنبه فيستحى. أئتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض "(١) والشاهد هنا النص الصحيح والصريح على أن نوحاً عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض.

وقد أرسله الله ليدعو الناس إلى التوحيد قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٢)

ولكن قوم نوح لما كذبوه وكانت النهاية أهلكهم الله بالطوفان يقول تعالى ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٣)

وجمع الرسل بالرغم أنهم ما كذبوا إلا رسولاً واحداً وهو نوح عليه السلام لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل فلذلك ذكر بلفظ الجمع "(٤) وبعد نوح عليه السلام خلت الأرض من الظالمين ولم يبق فيها إلا الموحدون فلما انحرفوا عن التوحيد أرسل الله إليهم رسولاً يقول تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾(٥) قيل هود وقومه وقيل صالحاً وقومه والأول أظهر كما يذكر البغوى (٦) وقد استمرت رحمة الله ورعايته لبنى آدم كلما ضلوا وزاغوا أنزل إليهم الوحى ليضئ لهم الظلمات ويهديهم إلى صراطه المستقيم (٧) يقول تعالى

---

(١) البخارى باب قول الله (وعلم آدم الأسماء كلها) انظر فتح البارى ج ٨ ص ١٠
(٢) سورة نوح الآية ١-٣
(٣) سورة الفرقان الآية ٣٧
(٤) مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٦٦٠
(٥) سورة المؤمنون الآية ٣١-٣٢
(٦) مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٦٢٤
(٧) العقيدة فى الله ص ٢٤٧/ ٢٤٨

openkanzalo.com

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) أى مترادفين يتبع بعضهم بعضاً غير متواصلين لأن بين كل نبيين زماناً طويلاً وهى فُعْلَى من المواترة قال الأصمعى: يقال واترت الخبر إذا أتبعت بعضه بعضاً وبين الخبرين مهلة (٢)

ولكن يبين الله عز وجل أن كل أمة إذا جاءها رسولها كذبوه وكان الجزاء حاضراً. يقول تعالى ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣)

وكان التذكير بمصير المكذبين نذيراً لأهل مكة ومن بلغه القرآن إلى قيام الساعة يقول تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (٤) قال ابن مسعود: عضوا على أيديهم غيظاً قال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم قال قتادة ومجاهد: كذبوا الرسل وردوا ما جاءوا به، وهذه الآية وغيرها تدل على أن الرسل الذين أرسهلم الله إلى الأمم من بعد نوح، وهود، وصالح لا يعلمهم إلا الله (٥) وهذا كقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (٦) والله سبحانه يعرض أحوال المكذبين يوم القيامة وهم يقرون ويعترفون بأن الرسل قد جاءتهم.

يعرض القرآن الكريم موقف الكفار فى نار جهنم يقول تعالى ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٤٤
(٢) مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٦٢٥
(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٠
(٤) سورة إبراهيم الآية ٩
(٥) تفسير البغوى ج ١ ص ٤٦٩
(٦) سورة غافر الآية ٧٨

اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ (١) والمقصود بالرسل فى الآية الرسول الذى يبعث من عند الله للإنذار (٢)

وهذه الكثرة من الرسل الذين أرسلوا إلى أممهم يوضحها العدد الكبير الذى حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنبياء فيما صححه ابن حبان عن أبى ذر مرفوعاً " أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر "(٣)

وكان هذا الجم الغفير من الأنبياء لتذكير الناس بالتوحيد وبالميثاق الذى أخذ عليهم من الله أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً.

ولله الحكمة البالغة فى إرسال الأنبياء والرسل، وقد التفت إلى هذا المعنى علماء الإسلام قديماً " كالغزالى " وغيره فذكروا أن البشرية كانت فى أمس الحاجة إلى الرسالة لأنهم يأتون بما لا تستقل به العقول. مثل ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحيل عليه من النقص، وما يجوز أن يتصف به ومثل المعاد الجسمانى وتعيين الحدود، وتعليم ما ينفع وما يضر من الأعمال وكذلك معرفة تفاصيل الثواب للمحسن والعقاب للعاصى لأن العقل فى هذه الأمور لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأخلاق والعقائد، ولا يفرق بين الشقى والسعيد فكان من لطف الله بعباده أن يرسل لهم رسلاً يبين لهم مالا يستطيعون الاستقلال به بعقولهم (٤). ثم كانت الحكمة البالغة فى إرسال محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل كخاتم للأنبياء والمرسلين ومتفرد دون غيره من الأنبياء بعموم رسالته صلى الله عليه وسلم للثقلين إلى أن تقوم الساعة. يقول سبحانه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الملك الآية ٨ ـ ٩

(٢) انظر مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٩٥٦و انظر العقيدة فى الله للأشقر ص ٢٤٩

(٣) فتح البارى ج ٦ ص ٣٦١ كتاب أحاديث الأنبياء

(٤) انظر الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ـ والمواقف لعضد الدين الإيجى ص ٣٤٥، والمقاصد للسعد التفتازانى ج ٢ ص ١٢٨

(٥) سورة سبأ الآية ٢٨